Journal of Social Sciences and Humanities:

السياسة العثمانية الإصلاحية في العراق في عهد الخليفة عبد الحميد الثاني

1876- 1905 م

محمدعلي الأحمد*

نوزت ساغلام*

ملخص

يتناول هذا البحث السياسة الإصلاحية العثمانية التي انتهجها الخليفة عبد الحميد الثاني في العراق خلال فترة خلافته، من 1876م حتى 1909م، إذ استطاع بسياسته الحكيمة، أن يُحدِثَ نقلة نوعية متميزة في كافة الولايات العثمانية عموماً، وفي الولايات العربية على وجه الخصوص، ونال العراق أولوية خاصة في سياسة عبد الحميد الخارجية، لأنه استشعر خطر الانجليز على العراق، وسعيهم المكثف لاحتلاله، من أجل مصالحهم السياسية الحيوية، لأن العراق يمثل نقطة الارتكاز الأساسية لتلك المصالح في منطقة الخليج العربي، ولهذا كان يحرص على تعيين ولاة أكفاءَ لإدارة شؤون العراق، وقد سعى هؤلاء الولاة الذين تناوبوا على إدارة العراق خلال فترة خلافته، إلى تطبيق حزمة من الإصلاحات التي تمثل رؤية الخليفة في إدارة شؤون الدولة بجوانبها المختلفة، كما نجح هؤلاء الولاة في الحفاظ على الأمن والاستقرار في العراق إلى آخر فترة حكمه، وقد أولى السلطان عبد الحميد أهمية خاصة لتمديد شبكة خطوط التلغراف، لأجل توفير الاتصال والتواصل بين الولايات العثمانية وبين مركز الخلافة استانبول، ولتأمين الأمن والاستقرار في ربوع الدولة العثمانية، والمحافظة على حدودها من الخطر الخارجي، وكذلك الحفاظ على أمن العراق الداخلي، والحرص على بناء وتجديد الكثير من المساجد والمدارس في بغداد، لما لهذه المؤسسات من دور في النهضة العلمية لهذه البلاد، وللدولة العثمانية عموماً، وقد انعكست تلك الرعاية الخاصة بالعراق ازدهاراً نعمت به ولاية العراق طوال فترة حكم عبد الحميد الثاني، وما تزال الآثار العثمانية شاخصة للعيان حتى العصر الراهن، تشهد على علو هِمَّة هذا الخليفة العثماني، وعلى كفاءة الولاة الذين تولوا المسؤولية في عهده، وتبعث على الفخر بإنجازاتهم في تلك المرحلة من تاريخ العراق .

الكلمات المفتاحية : الخليفة السلطان عبد الحميد الثاني، السياسة الإصلاحية ، رجال الطرق الصوفية ، الخلافة العثمانية، ، الجامعة الإسلامية ، مجلس المبعوثان العثماني ، نظام السكك الحديدية ، مدحت باشا، الولاة العثمانيون، التعليم الديني ، مدرسة أبناء العشائر، جمعية الإتحاد والترقي.

THE OTTOMAN REFORMIST POLICY IN IRAQ DURING THE REIGN OF CALIPH ABDULHAMID II

1876-1905

ABSTRACT

This research, Caliph II. It includes the reform policy in Iraq from 1876 to the period of Abdulhamid's caliphate. Because with his wise policy, he was able to make a significant leap in quality in all Ottoman states in general and in Arab states in particular. Iraq took a special priority in the foreign policy of Sultan Abdulhamid, because he realized the intense pursuit of the British to invade Iraq for his political interests. Because Iraq represented the main focus of these interests in the Arabian Gulf. For this reason, he appointed competent governors to administer Iraq. During his reign, he tried to regulate state affairs and implement a reform package through these governors, who ruled Iraq,

Dr. Karabük Üniversitesi Tarih Bölümü, ORCİD: 0000-0002-4982-1622, mohamadalialahmad@karabuk.edu.tr

* Doç. Dr. Karabük Üniversitesi İslami İlimler Fakültesi, ORCİD:0000-0003-0733-8939, nevzatsaglam@karabuk.edu.tr

and succeeded in ensuring security and stability in Iraq until the end of his reign. Sultan Abdulhamid gave special importance to the construction of telegraph lines in order to strengthen the communication and communication between the Ottoman provinces and the center of the caliphate, Istanbul, to ensure security and stability throughout the Empire against external dangers, and to protect the borders. In addition to ensuring the internal security of Iraq, many mosques and schools were built and renovated in Baghdad due to the importance of these activities in the scientific development of the Ottoman Empire in general. This special interest in Iraq was reflected in the prosperity of the Iraqi province during the reign of Abdulhamid II. These works confirm the vision of the Ottoman Caliph and what a correct policy he followed. Many of them have survived to the present day. The successful performances of the governors who served in Iraq during his reign are proud.

Key Words: Caliph Sultan Abdul Hamid II, Reform Politics, Sufi Men of Order, Ottoman Caliphate, Islamic University, Council of Ottoman Envoys, Railroad System, Midhat Pasha, Ottoman Governors, Religious Education, School of Clans, Union and Promotion Association.

المقدمة

. الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد

امتد عمر الدولة العثمانية ما يقارب ستة قرون، مرت فيها بمراحل بين القوة والضعف، بدأت بالنشأة والتأسيس، وانتهت بالتراجع والضعف ثم السقوط، وكان من تلك المدة حوالي أربعة قرون، فترة علاقات جيدة مع البلاد العربية، انتهج الخلفاء والسلاطين العثمانيون فيها نهجاً يدل على حصافة سياسية وإدارية، ولم يكن ذلك مُداراة ظاهرية دون قناعة وعمل، وإنما كان عن قناعة تامة وعن إحساس بالمسؤولية، نابع من الإدراك الكامل للمسؤولية التاريخية والأمانة التي حملها العثمانيون على عاتقهم في حمل راية الخلافة والذب عن الأمة، وأداء الواجب تجاهها1 ، ولذلك تسلط هذه الورقة البحثية الضوءُ على سياسة الخليفة عبد الحميد الثاني الإصلاحية في العراق في الجوانب الدينية والإدارية والاجتماعية والاقتصادية والتعليمية والأمنية، خلال فترة خلافته، باعتبار العراق إحدى ولايات الدولة العثمانية آنذاك، وقد ارتكزت سياسة الخليفة عبد الحميد الإصلاحية على الأسس الآتية :

أولاً : التودد للعرب والتقرب منهم وتقريبهم منه **:** وتوليتهم مناصب رفيعة وعليا في إدارة الدولة وفي إدارة المناطق والولايات العربية .

نظراً لما بين الأتراك والعرب من وشائج القربى والأخوة في العقيدة والدين، وذلك لتفهم الخلفاء العثمانيين لما يجمع بينهم وبين العرب من أخوة مبنية على قيم الإسلام التي قال الله فيها : " **... إنما المؤمنون إخوة ...** " سورة الحجرات الآية : 10 .

ثانياً : اتخاذ الإصلاح والإعمار للبلاد العربية نهجاً ثابتاً يسير عليه طوال فترة خلافتة **:**

اعتبر الخليفة عبد الحميد الثاني الإصلاحات والإعمار في البلاد العربية التي ما تزال في عهده تحت السيادة العثمانية، جزءاً من النهضة العمرانية والحضارية التي يسعى إليها في النهوض بكافة البلاد العثمانية، باعتبارها أرضاً إسلامية، و هي في نظر الخلفاء العثمانيين بلاداً إسلامية مقدسة مباركة، يضعون نصب أعينهم أمرين اثنين .

(1) الأحمد ، محمدعلي، سقوط الخلافة (عرب بلاد الشام والدولة العثمانية)، دار الإسراء،عمّان، 2006م، ص 208

الأول : أن الحفاظ عليها وصيانتها واجب ديني وأخلاقي **:** لأنها جزء أساس من البلاد الإسلامية التي ضمتها الدولة العثمانية إليها، وصارت أجزاءاً من دولة الخلافة الإسلامية العثمانية، وبالتالي فإن الحفاظ عليها مسؤولية دينية وعقيدة مقدسة .

الثاني : أن الحفاظ عليها واجب قومي ووطني : ويعتبر التفريط به خيانة للوطن والأمة بكاملها .

ولم يكن ذلك في بلاد العراق لوحدها، بل في كافة البلاد العربية التي بسطت الدولة العثمانية سيادتها عليها بدءاً من مطلع القرن العاشرالهجري/ السادس عشر الميلادي .

وقد قامت السياسة الإصلاحية العثمانية في العراق في عهد الخليفة عبد الحميد الثاني على الجوانب الآتية :

أولاً : الإصلاح الديني :

1- تقريب علماء الشريعة ورجال الطرق الصوفية **:** من أجل أن يشعر المواطنين العثمانيين من العرب بالطمأنينة والأمن، ويكسب ودهم وولائهم في الانقياد للدولة العثمانية ، والشعور بأنها دولتهم، وأنها تطبق الإسلام وتسعى لمجده ونشره والدفاع عنه في وجه الأعداء والمتربصين ، وكان الخليفة عبد الحميد الثاني يقرب رجال الطرق الصوفية ويبذل لهم الاموال لأجل ذلك، يقول علي الوردي نقلاً عن إسماعيل الواعظ في مذكراته : " كان – أي عبد الحميد الثاني – يحترم أهل العلم والطرائق ويعلي قدرهم، من أجل ذلك جعل مجلس المشايخ، ورتب رواتب للأعضاءالذين هم فيه، وكانت نيته حسنة مع المرشدين الدينيين، وكان أرباب العلم ذوي رتب عالية، كل ذلك لاجل إعلاء العلم وأهله[1] .

2 – بناء المساجد وإعمارها والعناية بها **:** وهو دليل قوي على تمسك الخليفة عبد الحميد الثاني بالدين والالتزام بأحكام الإسلام ، فقد كان إذا طرق سمعه أن في بلدة من البلدات العثمانية، أو في قرية أو ناحية، لم يكن فيها مسجد أو جامع تقام فيه صلاة الجمعة، يصدر أمراً ببناء جامع أو مسجد فيها ، من ذلك انه أصدر امراً ببناء جامع في قصبة الديوانية، حين علم أن اهل الديوانية يتكبدون المشاق في صلاة الجمعة، لعدم وجود جامع فيها، فأمر ببناء جامع لهم [2].

3 – طبع آلاف النسخ من القرآن الكريم وتوزيعها في أنحاء البلاد العثمانية **:** ومن بينها بلاد العراق .

4 – الإكثار من فتح المدارس الدينية**:** حتى كثرت أعداد الطلاب فيها، وبلغ العدد في استانبول وحدها أكثر من أربعين ألفاً .

5 – استثناء علماء الدين وطلبة العلم الشرعي من الجندية الإلزامية [3].

6 – تبني فكرة الجامعة الإسلامية والسعي لتطبيقها **:** وقد سيطرت هذه الفكرة على ذهن السلطان عبد الحميد الثاني، وأراد إنشاء جامعة تجمع كل بلدان المسلمين تحت شعار : "يا مسلمي العالم اتحدوا " . لانه يرى أن ملايين المسلمين في كل أنحاء العالم خاضعين لحكم غير المسلمين في الهند وأفريقيا ومناطق جنوب شرق آسيا كماليزيا وأندونيسيا وغيرها من بلاد المسلمين، وكان ذلك يثير حفيظة وحنق وغضب الخليفة عبد الحميد الثاني باعتباره خليفة المسلمين ومسؤولاً عنهم [4] ، وقد أصبح في نظر أكثر العراقيين بمثابة رمز للإسلام وعنوان مجده، واعتبر حامي حمى الإسلام والذائد عن ثغور المسلمين تجاه أعدائهم ومناوئيهم وخصومهم ، ولذلك كان يدعى له على المنابر وفي كل مناسبة على أنه الخليفة المدافع عن الإسلام ، وكانت العجائز والسيدات الكبيرات في السن يفتتحن قصصهن لأطفالهنَّ بالقول: كان يا ما كان ، اللهم انصر السلطان، ويختمن قصصهن تلك بالدعاء للخليفة عبد الحميد الثاني، ذلك الدعاء الذي صار مألوفاً لدى عامة المسلمين آنذاك بالقول: اللهم انصر الدين والدولة [5] .

---

(1) الوردي،علي،لمحات من تاريخ العراق الحديث(8ج) دار الراشد،ط2، بغداد،2005، جـ3، ص29

(2) الوردي المرجع السابق ، جـ 3، ص 29

(3) الوردي ، المرجع نفسه ، جـ 3، ص 29

(4) الشوابكة، أحمد فهد، حركة الجامعة الإسلامية،مكتبة المنار، ط1، الزرقاء/الأردن،1984م، ص 23 . وانظر: الوردي ، المرجع السابق ، جـ 3، ص 28

(5) الوردي ، لمحات من تاريخ العراق الحديث ،جـ3 ، ص 34

ثانياً - الإصلاحات في المجال السياسي :

1 – التوظيف السياسي للقب الخليفة ولسلطة الخلافة الإسلامية الديني ،

نهج الخيفة عبد الحميد الثاني نهجاً سياسياً يدل على بعد نظره وعن دهائه وحنكته السياسية في إدارة الدولة العثمانية، وكان الهدف الرئيس له من خلال ذلك هو حماية السلامة الإقليمية لما تبقى من مناطق تحت السيادة العثمانية في عهده، وكما هو معروف، كانت الدول الأوروبية الاستعمارية قد قسّمت الأراضي العثمانية فيما بينها. من أجل تحقيق أهدافها في السيطرة عليها واحتلال تلك المناطق الخاضعة للسيادة العثمانية، ولأجل ذلك عمدت تلك الدول الاستعمارية كفرنسا وبريطانيا وروسيا إلى دعم الحركات الانفصالية في الأراضي العثمانية ودعموها بكل الطرق، وكان العراق من البلدان التي سعت الدول الاستعمارية لإثارة الفتن والبلابل في ربوعه، ولذلك عمد الخيفة عبد الحميد الثاني إلى الرد على أعداء الدولة العثمانية من خلال هجوم مضاد يقضي باتخاذ خطوات سياسية تهدف لضمان الوحدة الجغرافية للأراضي العثمانية الواسعة، وتعمل على ترسيخ التضامن السياسي الإسلامي في إطار العقيدة المشتركة للمسلمين، وضمن إطار الوحدة للأمة الإسلامية، وقد أتقن الاستفادة من لقب خليفة المسلمين، و : أمير المؤمنين وذلك لضمان اجتماع كلمة الأمة تحت لواء الخلافة الإسلامية، إضافة إلى التمسك بلقب السلطان لضمان الحفاظ على سلطة الدولة والسلطنة وعلى الهيبة الداخلية للدولة.

2 – انتهاج الخليفة عبد الحميد الثاني سياسة تصالحية في العراق والبلاد العربية الأخرى :

فقد اعتمد سياسة إسلامية تتمثل في استيعاب الرأي العام في البلاد العربية والإسلامية التي تظللها السيادة العثمانية، لضمان ذلك الرأي العام الداعم لمواقفه وسياسته الخارجية في مواجهة أعداء الدولة العثمانية كخليفة للمسلمين، والموالي لمؤسسة الخلافة الإسلامية ورايتها، من خلال نشر الدعاة في كل أنحاء البلاد المسلمين، بما فيها ولاية العراق، والرد على الانجليز الذين أرادوا احتلال العراق وفلسطين، وبدأوا ببث دعايات خبيثة ضد شرعية الخليفة العثماني عبد الحميد الثاني، وفي شرعية العائلة العثمانية التي تحكم العالم الإسلامي باسم الخلافة، بأن هذه العائلة من العجم وليست من قريش، وقد نشر الانجليز تلك الدعاية الباطلة في كافة وسائل الإعلام الغربية عموماً، والبريطانية منها على وجه الخصوص، كما سعت بريطانية عبر وسائل إعلامها وخاصة الصحافة، إلى تقديم الخليفة العثماني عبد الحميد الثاني، على أنه بربري ومناهض للتحديث. فكان رد عبد الحميد عليهم قوياً وقد نجح في تجييش مشاعر كل المسلمين في العالم للتعاطف معه وتقديم الولاء والطاعة له تحت راية الإسلام والخلافة الإسلامية، وقد أفشل الخليفة عبد الحميد الثاني خططهم وتحريضهم ضد الدولة العثمانية بفضل سياسته وخبرته في إدارة الدولة، وأبطل كل الدسائس والمحاولات لإثارة المسلمين على مؤسس الخلافة. لكن بعد نجاح تركيا الفتاة المتمثلة في جمعية الاتحاد والترقي، بخلع عبد الحميد وتولي زمام السيطرة على الدولة العثمانية، أصبح عمل هؤلاء المستعمرين أسهل في إبعاد العرب عن العثمانيين، والتفريق بينهم ومن ثم السيطرة على بلادهم واحتلالها .

ثالثاً - في المجال التعليمي :

1- تأسيس الكثير من المدارس والكليات والمعاهد العلمية العالية :

سعى السلطان عبدالحميد الثاني أن يجدد في بناء الدولة العثمانية، وأن يبعث حياةً علمية نهضوية جديدة ، ولهذا كثّف جهوده لإحداث نقلة علمية في الدولة العثمانية، إذ أدرك بحسّه اليقظ أن الترهل قد أوهن مفاصلها مع تقادم السنين في عهود سابقةٍ، ولذلك اجتهد وبهمَّته العالية المعهوده فيه لنفض الغبارعن كاهلها، فبدأ ومنذ مطلع عهده بتأسيس الكثير من المدارس في كافة مراحل التعليم الأساسي، الإبتدائية والإعدادية والثانوية، وكذلك تأسيس المعاهد العلمية العالية والكليات، ويرى أورخان أن : " معظم الكليات ومعاهد الدراسات العليا الحالية في تركيا المعاصرة، وفي الولايات العربية التي كانت تحت السيادة العثمانية في عهده، ترجع في أصولها إلى عهد الخليفة عبد الحميد الثاني، أي أنه يُعَدُّ بحق رائد العلم والمعرفة في الدولة العثمانية ... وكانت الدولة العثمانية في حاجة ماسة لتلك المدارس والمنارات العلمية، لأن الجهل كان متفشياً في كثير من ربوعها، وكان ذلك من أبرز أسباب ضعفها، ومن أهم أسباب تأخرها عن ركب الحضارة، وعلاوةً على ذلك كان هناك سبب آخر مهم لحرص الخليفة عبد الحميد الثاني على الإكثار من بناء المدارس ودور العلم ومؤسساته، هوالمحافظة على عقائد الطلاب المسلمين ." [1].

(1) محمدعلي،أورخان، السلطان عبد الحميد، حياته وأحداث عصره، نشر: مكتبة الأسرة العربية، استانبول، 2019م، ص 218- 220

لأن المدارس التبشيرية الأمريكية منها والفرنسية والإنجليزية...الخ، قد كثرت في أرجاء الدولة العثمانية في عهد من سبقه من الخلفاء العثمانيين، خاصة في الفترة منذ نهاية القرن الثامن عشر، وطوال القرن التاسع عشر، بما فيه العقود الثلاثة الأخيرة منه، مضافاً إليها السنين الأولى من القرن العشرين التي سبقت إسقاطه عام 1909م، ولذلك وجد لزاماً عليه تدارك الخلل القائم، فركز جهوده للتسريع في مواجهة ذلك الخطر، والتصدي لتلك الهجمة الثقافية الشرسة من أوروبا وبلاد الغرب على الأمة الإسلامية، فيما اشتهر بالغزو الفكري والثقافي " [1] .

فكان عمله هذا بمثابة ردّ لهذه الهجمة عن الأمة بكاملها، باعتباره خليفة المسلمين، وهو المسؤول الأول عنها أمام الله، في الدفاع عن كرامتها وهويتها الحضارية، وسيسجل التاريخ له أو عليه هذا الاستشعار للمسؤولية وهذا التحمل لها .

2 – إنشاء مدرسة وأكاديمية أبناء القبائل في استانبول :

كان من أهم أنشطة الخليفة عبد الحميد الثاني الإدارية، هو اهتمامه بتحسين مستوى التعليم عموماً في كافة أنحاء الدولة العثمانية، ولأجل هذا تم إنشاء مديريات التربية والتعليم في جميع أنحاء البلاد، وتم افتتاح مدارس جديدة خاصة لتعليم أبناء القبائل، وقد أعد لإنشائها اللوائح القانونية التي تتيح استقلاليتها وارتباطها القصر السلطاني مباشرة، ومن ذلك تأسيس المدرسة القبلية في اسطنبول عام م1892، وتم افتتاحها في أكتوبر تشرين الأول من هذا العام، بالتزامن مع ذكرى المولد النبوي، وقد خصصت لتعليم أبناء قبائل الدولة العثمانية من كافة البلدان العربية المنضوية آنذاك تحت راية الخلافة، وهي تحتوي على طلبة من أبناء القبائل العربية من الجزيرة العربية والعراق وبلاد الشام، وغير ذلك، من أبناء العوائل الرئيسية المشهورة في العراق، وكان الهدف من إنشائها هو جمع أبناء العرب وغيرهم من شيوخ القبائل داخل حدود الدولة العثمانية لتعليمهم العلوم الأساسية إضافة إلى اللغة التركية والعربية، وكذلك لزيادة ولائهم للخلافة، وغرس روح الانتماء للأمة الإسلامية وللدولة العلية العثمانية، والعمل لزيادة الحماسة والحرص لديهم على إنقاذ مستقبل دولة الخلافة وعودتها إلى سابق عزها ومجدها وقوتها.

3 – تشكيل هيئة من علماء بغداد للوعظ والتربية والتعليم في أنحاء العراق :

أما فيما يخص العراق من تلك النهضة العلمية الهائلة التي استحدثها الخليفة عبد الحميد الثاني في ربوع الدولة العثمانية، فقد وردت الأوامر منه في أوائل عام 1893 م، إلى والي بغداد آنذاك حسن باشا باختيار عدد من علماء بغداد ليكونوا معلمين متجولين يتجولون في كافة مدن وقرى وأرياف ومناطق العراق من أجل تعليم الناس وتربيتهم على الأخلاق الحميدة، ووعظهم وإرشادهم وتثقيفهم، وقد اختير لهذه المهمة خمسة من أفاضل العلماء ومشهوريهم، ووضع لهم منهاج تربوي وتعليمي ليسيروا على هديه، وليرشدوا الناس للالتزام بطاعة ولي الأمر والولاء له [2]، تطبيقاً لقول الله عز وجل: " وأطيعوا الله والرسول وأولي الامر منكم " سورة النساء ، الآية(59) .

رابعاً – في المجال الإداري : كان الخليفة عبد الحميد الثاني يختار خلال فترة ولايته الدستورية في الدولة العثمانية الأكفاء وأصحاب الخبرة والتجربة والمهارة الإدارية في إدارة الولايات العثمانية، وانطلاقاً من هذا فقد عَيَّنَ العديد من الولاة الأكفاء على إدارة الولايات العراقية، وقد توالى على هذه الإدارة العديد من الولاة العثمانيين، وخاصة على ولاية بغداد باعتبارها الولاية المركزية في إدارة العراق، وذلك ليؤدي هؤلاء الولاة مهامهم الإدارية بالشكل الناجح، وحين تبوأ الخليفة عبد الحميد الثاني منصب الخلافة عام 1876م ، كان على ولاية بغداد والياً اسمه عبد الرحمن شرف، وقام هذا الوالي أنذاك بالعديد من الإصلاحات الإدارية أثناء ولايته على العراق، ومن تلك المهام الإدارية الناجحة الإشراف على الانتخابات التي جرت في ولاية بغداد، لانتخاب ممثلي العراق في مجلس المبعوثان العثماني، ضمن عملية انتخابات عامة لانتخاب ممثلين في مجلس النواب العثماني من كافة الولايات العثمانية، وتمت عملية الانتخاب بهدوء ونجحت كذلك في إيصال العدد المحدد المطلوب من النواب الذين يمثلون العراق في مجلس المبعوثان العثماني، وكانت هذه المهمة إدارية دستورية سياسية في الوقت ذاته، وتم من خلالها تدريب العراقيين على المشاركة الدستورية في عملية الانتخاب .

ومن النواب الذين توالوا على ولاية بغداد الوالي عاكف باشا والوالي قدري باشا وأحمد عزت باشا ، والوالي مدحت باشا الذي كان من أشهر الولاة العثمانيين في الولايات العثمانية، وقد ولاّه الخليفة عبد الحميد الثاني في عهد خلافته عدّة مرات، منها ولايته هذه على بغداد إضافته لتعيينه في فترة أخرى والياً على ولاية دمشق، وكان على الرغم من انتمائه للحركة

---

(1) زين، نور الدين، نشوء القومية العربية، دارالنهار،ط8،بيروت، 1972،63 -62 ، دروزة، محمد عزت، نشأة الحركة العربية الحديثة،المكتبة العصرية، بيروت، د.ت، ص 95 - 94 .

(2) الوردي ، لمحات من تاريخ العراق الحديث، جـ 3 ، ص35

المناوئة للخلافة، فيما عرف بجمعية الاتحاد والترقي، أو بجماعة تركيا الفتاة، وتحالفه مع الانجليزلإسقاط الخليفة عبد الحميد الثاني بشكل خاص، وإسقاط الخلافة الإسلامية العثمانية عموماً، لكنه كان من الناحية الإدارية من أنجح الولاة في الدولة العثمانية، وقد شهد له الخليفة عبد الحميد الثاني بذلك ،وأشاد بالكفاءة الإدارية له وبالنجاح في مهامه الإدارية على الرغم من الخلاف الشديد بينهما ، وقال عنه: " أنا لا أغض من قيمة مدحت باشا، فلقد كان والياً فعالاً [1] .

وقد قام مدحت باشا أثناء إدارته لولاية بغداد بالكثير من الأعمال العمرانية والإدارية الإصلاحية الناجحة، من ذلك إنشاؤه أول مدرسة وأول مطبعة وأول جريدة وأول مستشفىً، كما أنشأ سكة حديد تجرها الخيول بين بغداد والكاظمية .

والحقيقة تعد ولاية مدحت باشا حزمة ضوء بارزة تشع بالخير والنور في العمل الإداري العثماني الناجح في ولاية بغداد خصوصاً، وانعكس ذلك إيجابياً على الوضع العام في العراق بشكل تلقائي، جراء النفع العام الذي أحدثته إصلاحات مدحت باشا وغيره من الولاة العثمانيين في هذه الحقبة المتميزة في الجوانب الفكرية والاجتماعية، والحضارية بشكل عام، حتى صارت إنجازاته محور أحاديث الناس لفترات لاحقة [2]

خامساً - في المجال الاقتصادي :

وقد اشتهر عصر الخليفة عبد الحميد الثاني بأنه من أكثر العهود في الدولة العثمانية بالإصلاح والتعمير وتطوير البنية التحتية للولايات العثمانية ، ففي عهده كان أحد أكبر مشاريع إنشاء نظام السكك الحديدية، فقد تم في عام م 1888 إبرام اتفاق مع الألمان لبناء خط سكة حديد من اسطنبول إلى بغداد، وقد عبَّر السلطان عبد الحميد عن هدفه الاستراتيجي البعيد من إنشاء خط السكك الحديدي هذا بكلمات خلَّدها التاريخ له بمداد من ذهب قال فيها : " بفضل سكة حديد بغداد ، سيتم إحياء التجارة بين الهند وأوروبا. إذا كان هذا الطريق يربط سوريا ببيروت والإسكندرية وحيفا ، فسيظهر طريق تجاري جديد، لن يقوي هذا الطريق قوتنا الاقتصادية فحسب، بل سيقوي قوتنا السياسية أيضًا في هذه المناطق . " وعلاوة على ذلك فإن هذا الخط الحديدي مهم جداً من الناحية العسكرية الاستراتيجية للدولة العثمانية إذ سيكون بمثابة ربط استانبول بالخليج العربي من خلال خط حيدر باشا الذي يربط بغداد بهذه الشبكة الحديدية، ويبلغ طول هذه الشبكة 1780 كم في عام 1888 م ، ثم يصل طوله إلى 5883 كم في عام 1908- 1907 .

وفي السياق ذاته يذكر من الاصلاحات الاقتصادية في العراق ما ذكر في عهود الولاة نامق باشا وسري باشا وغيره من الولاة العثمانيين، خاصة مدحت باشا، حتى أن واردات العراق وصلت في عهد مدحت باشا إلى مائتين وعشرين ألف كيس، أي ما يعادل مليون ومائة ألف ليرة عثمانية آنذاك [3]. ونتيجة لنجاحاته تلك فقد انعكس ذلك على الحياة الاجتماعية، وتكثفت في هذه الفترة الإنجازات الحضارية كالإكثار من أعمال البناء للمرافق العامة، وإنشاء دار للحكومة في بغداد، وإنشاء العديد من الحدائق والمتنزهات وغيرها من الخدمات [4] .

لقد شملت سياسة الخليفة عبد الحميد الثاني الإصلاحية كافة جوانب الحياة في الولايات العثمانية قاطبة، وكان عبد الحميد يولي الولايات العربية عناية خاصة ، لما للعرب من مكانة في نفسه، باعتبارهم حملة رسالة الإسلام، وكان يعتبر تلك الإصلاحات في بلادهم حيوية وأساسية، ولا سيما في المجالات الاقتصادية، لأجل التخفيف عن الناس من ضنك العيش، ولقطع الطريق على مثير الفتن الذين يستغلون الصعوبات الاقتصادية لأجل التأليب على الدولة وإثارة المتمردين ليخرجوا على سلطتها وإدارتها، وبذلك تتحقق مآرب الأعداء كفرنسا وروسيا وبريطانيا في تمزيقها، وفصل الولايات العربية عنها، والعراق من أوائل الولايات التي تسعى تلك الدول الإستعمارية لفصلها عن جسد الدولة العثمانية، من خلال إثارة النعرات العصبية والطائفية بين السكان، وتحريضهم ضد دولة الخلافة العثمانية [5] ، والخليفة عبد الحميد الثاني يدرك بخبرته الإدارية والسياسية، ويعلم من خلال تجربته في التعامل مع تلك الدول على امتداد فترة حكمه، أن الدول الكبرى تنتهز كل فرصة لاقتطاع مزيد من المناطق والولايات العربية من سلطة الدولة العثمانية، ولهذا كان يجتهد دوماً لتحسين العلاقات بين عاصمة الخلافة وبين رعاياها من أبناء البلاد العربية، وما تلك الخدمات إلا وسائل لتقوية تلك الوشائج والصلات بين الطرفين، وإن ربط سكة حديد بغداد بالخط الحديدي الذي يربط الشام بالحجاز وبعاصمة الخلافة

---

(1) عبد الحميد الثاني، المذكرات ، تحقيق محمد حرب، دار القلم، ط3 ،دمشق، 1991، ص69- 78

(2) الوردي لمحات من تاريخ العراق الحديث ، جـ2، ص 277 - 264

(3) الوردي ، المرجع الصابق ، جـ2 ص 278 - 277

(4) الوردي ، المرجع السابق ، جـ2 ، ص 276 .

(5) **بيهم، محمد جميل، فلسفة التاريخ العثماني،شركة فرج الله للمطبوعات، بيروت ، 1954م، ص 75 . وانظر :الأحمد، سقوط الخلافة، ص 215 - 214**

استانبول، عامل يساعد على تمتين تلك الأواصر، ويسهل على الحجاج العراقيين الحج لبيت الله الحرام ، ويعطي انطباعاً لدى السكان بالرضى عن العثمانيين وعن مؤسسة الخلافة وعن الخليفة، ويزيد من التفاف الرعايا العثمانيين المسلمين من كافة الأعراق، عرباً وغير عرب، للالتفاف حول راية الخلافة [1] ، ويسهم على الدوام، وعن طريق الولاة الأكفاء، للإكثار من الخدمات للولايات العربية وللمزيد من المشاريع الاقتصادية والعمرانية التي تنعكس على السكان في المدن العراقية بالاستقرار الامني والاجتماعي، وعلاوة على ما سبق من إصلاحات اقتصادية، يُشار هنا إلى المزيد من تلك الخطط والبرامج والإنجازات الاقتصادية، ومن ذلك :

1 - نقل التجارة بين إيران والعراق والهند إلى الأناضول؛ وذلك باستخدام نَهْرَيْ دجلة والفرات في النقل التجاري .

2- ربط البحر الأحمر والخليج العربي ببعضهما من خلال زيادة السكك الحديدية في المنطقة .

3 – العمل على توطين البدو الرحل في البادية العراقية، وذلك بتدريبهم وتأهيلهم ليعملوا في الزراعة ويتملكوا المناطق الزراعية التي يتم تشجيعهم على الاستقرار فيها . 4 - السعي لخدمة المناطق الجنوبية من العراق، بمد شبكة من الطرق الحديدية تربط تلك المناطق ببعضها البعض، كي تسهل الدولة العثمانية على الأهالي حركة التجارة وزيارة الأماكن المقدسة لدى الشيعة باستخدام السكك الحديدية بدلاً من الحمير والإبل، وكذلك لتقوية سلطة الدولة وزيادة الاستقرار الاجتماعي في الجزيرة العربية والعراق والشام وضبط الأمن فيها، عن طريق ربطها جميعاً بالسكك الحديدية، لضمان التواصل السريع بينها وزيادة الاستقرار الاجتماعي فيها بشكل أكثر صرامة وحزماً، وهذا ما خطط له السلطان عبد الحميد الثاني في جعل شبه الجزيرة العربيةوما جاورها تحت رقابة صارمة من خلال شبكة السكك الحديدية.[2]

5 - استخدام علماء الدين لإرشاد الناس وتوعيتهم في إحسان التعامل مع سلطة الدولة وفي طاعة أولي الأمر، من أجل ضمان الأمن والسلام في المجتمع العراقي، ومن الأمثلة على ذلك تمت مكافأة كل من العلماء محمد لطفي وعمر خلوصي ومحمد طاهر أفندي ، اللذين كانوا محاضرين ووعاظاً، إذ أنهم نجحوا إلى حد كبير في زيادة الوعي لدى الناس، مما أدى إلى التقليل من وقوع الجرائم ومن حركة اللصوصية في العراق.[3]

6 – العمل على الاستفادة من الاقتراح المقدم من قبل خبير في الوضع البيئي في العراق، وذلك باستقدام زورق من قطر لاستخدامه في تنظيف نهري دجلة والفرات، على طول امتدادهما من بغداد إلى الموصل، وعلى الرغم من أن ذلك سيكلف الكثير من المال في البداية، إلا أنه سيوفر في نهاية الأمر الكثير الجهد والمال أيضاً، ويحقق الفوائد الأخرى المتوخاة من ذلك العمل، من حيث زيادة وتسهيل التجارة، من أجل جعل العراق في المستقبل أكثر ازدهارًا.[4]

7 - تنفيذ المزيد من الخطط التجارية التي تنشط الاقتصاد العراقي في هذه الفترة، ومن ذلك تشغيل باخرة على نهري دجلة والفرات، تهدف لزيادة حركة التجارة والنقل والتنمية في المنطقة.[5]

سادساً - في المجال الأمني :

تعدّ الحالة الأمنية والاستقرار الاجتماعي والسياسي في الولايات العثمانية من أكبر التحديات التي واجهت الولاة العثمانيين في كافة مناطق الدولة العثمانية، وقد عانى العراق في بعض الحالات خلال فترة السيادة العثمانية عليه من الاضطراب والفتن والقلاقل، وكانت سياسة الولاة العثمانيين متقلبة تجاه الأحداث التي تقع هناك، ويعالجون البعض منها بالسياسة واللين والحكمة، والبعض الآخر تستخدم الشدّة والحزم والقوة للقضاء عليه، سعياً لاجتثاث الفتن وحركات العصيان المسلح من جذورها، ويتم ذلك لأجل الحفاظ على الاستقرار، وبسط سلطة الدول وهيبتها، وكل ذلك يرجع لأسلوب كل والي وخطته في الحُكْم، ولطريقته في تصريف أمور الإدارة، ومن الأمثلة التي يستدل بها على ذلك، ما حدث أثناء اندلاع ثورة آل السعدون في جنوب العراق، بعد المجاعة التي حدثت في العراق في عامي 1879 و 1880 ، وحدث فيها الكثير من الوفيات، إذ يقال أن الأطفال يتركون تحت رحمة الجوع ويؤدي للكثير من ا لوفيات بين صفوفهم، الأمر الذي جعل الناس يتذمرون ويرفعون أصواتهم ضد الدولة العثمانية من شدّة وطأة هذه الأزمة الخانقة عليهم [6] ، وبسبب تلك الاوضاع الخانقة الصعبة

---

(1) برو ، توفيق ، العرب والترك، في العهد الدستوري العثماني، نشر : دار طلاس،ط1، دمشق، 1991م، 49 - 48

(2) BOA, Y.PRK.TNF .3-75

(3) BOA, Y.MTV .169-89

(4) BOA, .BEO .2552/191371

(5) BOA, .BEO .2518/188843

(6) العزاوي عباس ، تاريخ العراق بين احتلالين،(8 ج) ، مطبعة بغداد، بغداد،1956، جـ 8، 50- 49،

على الأهالي، حدثت ثورة في جنوب العراق قادها منصور السعدون، وسعى الوالي العثماني آنذاك عبد الرحمن باشا، وبإيعاز من الخليفة عبد الحميد الثاني، بعد التشاور معه، إلى المعالجة لتلك الأزمة بالطرق السلمية، وبذل المساعي تهدئة الخواطر دون اللجوء إلى العنف والشدّة، ولكن تحولت الأمور إلى عصيان وثورة مسلحة ضد الدولة العثمانية وسلطتها بسبب التحريض الأجنبي لشيوخ العشائر، فاضطرت الدولة في نهاية المطاف إلى استخدام القوة لإخماد نار تلك الفتنة في العام 1881 م، وإعادة الأمور إلى حالة الاستقرار والسلم [1] .

الخاتمة

تناولت هذه الورقة البحثية الأعمال الإصلاحية في العراق في عهد الخليفة عبد الحميد الثاني، في المجالات المتعددة، ولابد من القول إن الخليفة عبد الحميد الثاني أراد من هذه الإصلاحات تحقيق الإنجازات التي استهدفها، وسعى إلى تغيير الواقع المرير الذي ورثه عمن سبقوه، وعانت منه الدولة العثمانية في أواخر أيامها، ولذلك قام بهذه الإصلاحات من أجل النهوض بالدولة من جديد، بعدما وصلت لدرجة الإنهيار التام في أواخر أيامها، فيما عرف بالرجل المريض، وقد أراد الأوربيون أن يسقطوها قبيل تولي االسلطان عبد الحميد إدارتها، ولكنها ومع استلام الخليفة عبد الحميد الثاني لزمام الأمور فيها قد ثبتت من جديد، ودبت فيها الحياة من جديد في عهده لمدة تربوا على الثلث قرن من الزمان، وقد كانت حركة الإصلاحات الواسعة في كافة أنحاء الدولة، والتي قادها بنفسه من مركز الخلافة استانبول، أوسع وأضخم مما يُتوَقع، وقد شملت كافة مجالات الحياة، من اقتصاد وسياسة وتربية وتعليم وأمن ، بقصد النهوض بالدولة في شؤون الدين والدنيا، وقد أولى البلاد العربية عناية خاصة لما لها من أهمية قصوى في الحفاظ على تماسك الدولة وحفظ وحدتها، وكذلك لأنه يراها امانة في عنقه، وكان للعراق مع الشام والحجاز أهمية خاصة عنده، لأنها تمثل جوهر بلاد الإسلام، علاوةً على أنها جزءاً أساسياً من كيان الدولة، وبتركها بدون إصلاحات يعني التفريط بالأمانة التي حَمَلها كخليفة للمسلمين، وهو أمر غاية في الخطورة، كي لا يسجل التاريخ عنه قصَّر أو خان امانته، أما الإصلاحات التي قام بها الولاة العثمانيون في العراق فقد استوعبت كافة مناحي الحياة، واستوعبت في الاقتصاد جوانب الزراعة والري وبناء السدود وإنشاء الطرق، كما شملت مجالات الصناعة ومد الطرق وسكك الحديد وإنشاء خطوط الهاتف والكهرباء، إضافة لإنشاء المصانع وتصنيع الأسلحة وغيرها من المنتجات العسكرية، وفي الحقيقة لم تقتصر الإصلاحات في هذا العهد على العراق وحسب، بل تتعدى إلى كافة البلاد العربية التي ظللتها الخلافة العثمانية بسيادتها خلال تلك الفترة الطويلة، كالشام ومصر والحجاز وغيرها من المناطق التي لا يتسع المقام في هذا السياق للحديث عنها وعن الإنجازات العثمانية في عهد الخليفة عبد الحميد الثاني عنها، لكن يمكن القول إن آثار الإصلاحات العثمانية في العراق ما تزال شواهد حية تؤكد مع مرور الأيام وتعاقب السنين عظمة شخصية عبد الحميد الثاني، وأنه استطاع أن يحافظ على دولته لعقود عدة، وأنه لو قدر له إتمام عمليات الإصلاح التي بدأها بالشكل الذي خطط له وأداره بنجاح وهمّة عالية، لأعاد الدولة إلى سابق عهدها من الفتوة والمنعة والقوة والهيبة والمجد، ولاستمرت إلى قرون عديدة أخرى تفرض هيبتها على أوروبا وعلى الدنيا بأسرها .

(1) الوردي لمحات من تاريخ العراق الحديث ، جـ3 ، ص47 – 44

المراجع العربية

1- الأحمد ، محمدعلي، سقوط الخلافة(عرب بلاد الشام والدولة العثمانية)، دار الإسراء،عمَّان، 2006م

2– برو ، توفيق ، العرب والترك، في العهد الدستوري العثماني، نشر : دار طلاس،ط1، دمشق، 1991م .

3 - **بيهم، محمد جميل، فلسفة التاريخ العثماني، شركة فرج الله للمطبوعات، بيروت ، 1954**

4 - دروزة، محمد عزت، نشأة الحركة العربية الحديثة،المكتبة العصرية، بيروت، د.ت

5 - زين، نور الدين، نشوء القومية العربية، دارالنهار،ط8،بيروت، 1972 .

6 - الشوابكة، أحمد فهد، حركة الجامعة الإسلامية،مكتبة المنار، ط1، الزرقاء/الأردن،1984م

7 – عبد الحميد الثاني، المذكرات ، تحقيق محمد حرب، دار القلم، ط3 ،دمشق، م1991

8 - العزاوي عباس ، تاريخ العراق بين احتلالين،(8 ج) ، مطبعة بغداد، بغداد، 1956

9 - محمدعلي،أورخان، السلطان عبد الحميد، حياته وأحداث عصره، نشر: مكتبة الأسرة العربية، استانبول، 2019م

10 - الوردي،علي،لمحات من تاريخ العراق الحديث(8ج) دار الراشد،ط2، بغداد،2005 م .

(BOA ,(Devlet Arşivleri Başkanlığı ,Yıldız Perakende Ticaret ve Nafia Nezareti (Y.PRK.TNF)), 3-75.

(BOA ,(Devlet Arşivleri Başkanlığı ,Yıldız Mütenevvia (Y.MTV, 89-169.

(BOA ,(Devlet Arşivleri Başkanlığı ,Bâb-ı Âlî Evrak Odası (BEO), 2552/191371.

(BOA ,(Devlet Arşivleri Başkanlığı ,BEO. 2518/188843.